المشكاة
مجلّة علميّة محكّمة
العدد الســادس- 2008

ترجمة كلام الله : الإشكاليات والأخطاء والمقاصد

د.حسن القرواشــي
المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بجندوبة
(جامعة جندوبة)

1 - الإشكاليات النظرية :

تطرح ترجمة النصوص الدينيــة المقدّسة جملة من الإشكاليات الخاصة بكلام الله وحيــا، فضلا عن الإشكاليات المتعلقة بالأمانة والخيانة والمثاقفة التي يطرحها تحويل أية رسالة من نظام علامي إلى آخر. وإذا كان من المعقول المفهوم أن يتكلم الإنسان على كلام الإنسان ويحوّله من نظام علامي إلى آخر فمن غير المفهوم في المعقولية الدينية أن يرتقي الإنسان إلى مرتبة الإله ويصبح ناطقا باسمه في غير اللسان الذي نطق به. فذلك أمر متعذر إذ لا يمكن أن يعبّر عن الله إلا كلام الله في صيغته الأصلية ولا يمكن تحقيق المماثلة بين كلام الله وكلام الإنسان المترجم له حتى وإن بذل الإنسان أقصى قدراته. ويبدو أن ترجمة كلمة الله مهما كان نوعها تطرح صعوبات أخرى أعقد. فإذا كانت كلمة الله في المسيحية هي عيسى البشر الإله، فإن الانتقال من المجال البيولوجي إلى المجال اللساني ليس بالأمر المضمون والمقبول بداهة. ويمكن للمسيحي أن يقتصر على كلام الله الذي تحوّل إلى جسد في شخص المسيح وأصبح أمرا بيولوجيا دون أن يحتاج إلى ترجمة أو إلى كتاب مقدس مكوّن

من لغة إنسانية نسبية يمكن أن تنقل أقوال عيسى ولكنها لا يمكن أن تتماهى وكيانه. ولئن أوجد المسيحيون عبر مقولة الإلهام بالروح القدس حلاّ لذلك الانتقال من البيولوجي إلى اللساني بحيث أصبح الكتاب المقدّس من وضع الله، [1] فإن ترجمته من لغة إلى أخرى لم تكن دائما بالعملية السليمة إلى درجة بدت فيها بعض العقائد المركزية غير مستندة إلى أساس نصيّ مكين.

وإذا كانت كلمة الله من مجال اللسانيات مثلما هو الشأن في الإسلام، فإن شرعية ترجمة تلك الكلمة أو استحالتها رهينة المواقف الكلامية من الذات الإلهية وصفاتها. فالمعتزلي الذي يتبنىّ مقولة خلق القرآن لا قدمه، حتى لا يقع في التجسّد الذي قال به النصارى عندما اعتبروا أن عيسى هو كلمة الله القديمة التي ظهرت في الزمان في شكل إنسان وينفي عن الجوهر الفرد كل صفة وعن الصفة كل حقيقة إيجابية متميّزة عن الجوهر الفرد حتى لا يبرر وجود ألوهية متعددة لا مثلّثة فقط،[2] يجيز انطلاقا من هذه المقدمات الكلامية ترجمة القرآن. فما دام القرآن كلام الله المخلوق قد ظهر في الزمـــان في اللغة العربية يمكن للإنسان المخلوق بدوره أن يتعامل معه تعاملا ينطلق من عملية الخلق في الزمان دون أن يقع المسّ بالتوحيـــد الهاجس العقدي المركزي لدى أهل التوحيد. أما السنيّ الذي يعتقد أن الله "متكلم بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق وأنه ليس بصوت يحدث من انسلال هواء... ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة ..." [3]، فإنه يجد نفسه حقيقة في نفس الوضعية التي يعيشها المسيحي والتي تجعل ترجمة كلام الله والانتقال به من مجال بيولوجي إلى مجال لساني أمرا مستحيلا لأن السنيّ مطالب بأن يترجم الله وينقل "كلاما بغير صوت ولا حرف" وهذا أمر على جلاله لا معنى له بالنسبة إلى الترجمة.

---

1) المجمع الفاتيكاني الثاني، دساتير – قرارات – بيانات، الوحي الإلهي، المكتبة البولسيّة، بيروت، 1992، ص 129.

2) هنري كوربان، تاريخ الفلسفة ال هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، 1983، ص 174.

3) أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، (دون تاريخ) ص 97.

وحتى يخرج الضمير المؤمن الإسلامي من هذا المأزق اجتهد مثلما اجتهد المسيحيون. فاعتبر بعض العلماء دون استدلال أن كلام الله القديم القائم بذات الله والذي لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق هو نفسه المقروء بالألسنة المكتوب في المصاحف المحفوظ في القلوب. فجمعوا بذلك بين الأمور المتضادة : كلام الله لا يشبه كلام الخلق ويشبهه في نفس الوقت وهو موجود بالمصاحف وغير موجود بها في نفس الوقت وهو كلام وفي نفس الوقت ليس كلاما، ولهذا فإن ترجمته ممكنة ومستحيلة في نفس الآن. وسيسعى ابن رشد انطلاقا من بعض الآيات القرآنية إلى إيجاد حل يجيز ترجمة القرآن من خلال مقولة الخلق ويصون في نفس الوقت ألوهيته من خلال مقولة القدم وذلك عبر الجمع بين لفظ القرآن ومعناه أثناء النظر في صفات الله، خلافا لما قامت به المعتزلة (نظروا إلى اللفظ دون المعنى) والأشعرية (نظروا إلى المعنى الذي يدل عليه اللفظ) والفصل بين الجانب البشري والإلهي والقديم والمخلوق فيه.

يرى ابن رشد أن منهج القدامى هو الذي أوقعهم في المأزق. فمن نظر إلى اللفظ دون المعنى قال إن القرآن مخلوق ومن نظر إلى المعنى الذي يدل عليه اللفظ قال إنه غير مخلوق [1]. وبالتالي تصبح الترجمة ممكنة في الحالة الأولى وغير ممكنة في الثانية. والصواب في نظره هو الجمع بين معنى كلام الله ولفظه والتنبّه إلى الوسائط التي انتقل بها كلام الله إلى البشر من خلال تدبر كلام الله ذاته. فليس اللفظ دائما وسيطا إجباريا لنقل كلام الله إذ يمكن نقل كلام الله عبر الوحـــي أي بغير واسطة لفظ مثلما تدلّ على ذلك الآية القرآنية : "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء". في هذه الحالة ينكشف المعنى في نفس المخاطب بغير واسطة لفظ بل بفعل يفعله الله في السامع. وإذا تكلم الله من وراء حجاب أي بواسطة ألفاظ فإن الله هو الذي يخلق تلك الألفاظ في نفس الذي يصطفيه. ويمكن أخيرا أن يكون وحي الله بواسطة ملك.[2] هذه الإمكانيات الثلاث تجعل كلام الله فعلا

1) ابن رشد، كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982، ص 73.
2) المصدر السّابق، ص 72.

لا لفظا ومعنى بغير واسطة عبر الوحي. وبالنسبة إلى الترجمة نجد أنفسنا في هذه الحالة تقريبا في نفس الوضعية التي عاشها المسيحي والمسلم السنيّ : استحالة ترجمة كلام الله البيولوجي واستحالة ترجمة كلام ليس بحرف أو صوت، وهو في الواقع معان بدون ألفاظ. ولا يمكن لتلك المعاني أن تنقل وتترجم إلا إذا صاغها المختار في لغته البشرية لا الإلهية. وعندما يكون كلام الله بواسطــة ملك أو بواسطة اللفظ، تكون ترجمته ممكنة، لأن ابن رشد اعتبر أن القرآن هو كلام الله القديم وفي نفس الوقت رأى أن اللفظ الدّال عليه مخلوق لله لا للبشر. ورغم أن ألفاظ القرآن التي هي خلق الله تباين الألفاظ التي ينطق بها الإنسان في غير القرآن والتي هي فعل للإنسان بإذن الله، فإن ترجمة القرآن تصبح ممكنة وشرعية عبر ألفاظه المخلوقة. وعلى المسلم أن يعظّم الحروف التي في المصحف وإن كانت من صنع الإنسان لا لأنها من كلام الله بل لأنها دالة على اللفظ المخلوق لله وعلى المعنى الذي ليس بمخلوق[1].

2 - الأخطــاء العمليــة :

أثناء ترجمة النصوص الدينية تظل الخلفية العقدية موجهة للترجمة ومتحكمة في الفهم والتأويل وفي كيفية التعامل مع الجانب المجازي من العبارة الدينية. كما أن الإشكاليات التركيبية الموجودة في صلب النص المترجم ذاته والمؤثرة في ضبط المعنى وتحديد الأحكام تبقى قائمة. فقد ارتبط محمّد حميد الله - على سبيل المثال - ارتباطا حرفيا بالنص واعترف بأن ترجمته ليست دائما رشيقة لأنه أراد أن يظلّ وفيّا للقرآن وللغة العربية ولأسلوب القرآن[2] حتى وإنّ لم يكن المعنى واضحا دائما في ترجماته. ولهذا نقل كلمة (عبد) في "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا" (الإسراء،17 ، 1) وفي "وإن كنتم في ريب ممـــا نزلنـــا على عبدنا" (البقرة، 23، 2) وفي "قـــال إني عبـــد الله" (مريم،19،30)... بـــ (**esclave**) بينما نقلهـــا كاسمرسكـــي وبلاشـــير وشوراقـــي[3] بـــ (**serviteur**) فكان أقرب إلى الغزالي منه إلى المعتزلة في

1) المصدر نفسه، ص 73.
2) محمّد حميد الله، القرآن المجيد مع معانيه بالفرنسية، دار النور، الطبعة 12، 1406/1986.
3) André Chouraqui, L'Appel, Paris, R.Laffont, 1990

فهم هذه الألفاظ. نفس الملاحظة تنطبق على فعل (نظر) في قوله تعالى : "أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض" (الأعراف، 7، 185). فقد اعتمد حميد الله وبلاشير[1] الفهم المعتزلي الذي يربط (نظر) بالاعتبار والفكر، في حين نحا كاسمرسكي[2]وجاك بارك [3] المنحى الحنبلي فترجما (نظر) بـ **(regarder)** و**(tourner)** وفي سياقات أخرى غير مجازية "أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم" (البقرة،2،187)، استعمل حميد الله وبلاشير وكاسمرسكي وقروجان[4] أفعالا دالة على الكنـــاية مثـــل **(approcher)** و **(cohabiter)**، خلافـــا لكشـــريد[5] الذي استعمل **(avoir des rapports avec vos femmes)** وللباعمراني [6] الذي نقل (أحلّ لكم) إلى الأمازيغية بـــ(يحسن لكم) أو (يستحب لكم) : "هان يعدل أون آد تّناولم تيمغارين نون"، بينما المطلوب هو استعمالُ "تزري" مرادفا لأحلّ بدل "يعدل أون". وعندما كانت العلاقة بين جملة الشرط وجواب الشّرط في حاجة إلى التدبر مثلما هو الشأن في سورة النساء (4، 2) : "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم". تجاهل حميد الله وكاسمرسكي وبارك ذلك بينما نبّه إليه بلاشير، واضطر شوراقي إلى استعمال المؤنث **(les orphelines)** حتى يستقيم التركيب ولو على حساب المعنى. وعموما يعسر في ترجمة بعض الآيات مثل "ثمّ استوى إلى السّماء" (البقرة، 2، 29) أن نجد نصوصا متقاربـــة. فقد تعـــددت ترجمة فعل (استوى) بتعـــدد الترجمات : ترجـــم فعل استـــوى بـــ **(s'établi)** و**(se porta)** و**(s'est élevé)** و**(se tourna)** و**(s'en prenant droit au ciel)**، بل إننا نجد في الترجمة الواحدة طرقا مختلفة لتعريب ذلك. فقد نقل الباعمراني تلك الآية طورا بـــ"يسكّوس ف ودابو نس" أي : جلس على عرشه، وطورا بـــ " : ئكا ؤندّابو

---

1) R. Blachére, Le Coran, traduit de l'arabe, Paris, M & Larose, 1956
2) Kazimirski, Le Coran, Paris, Garnier,1981
3) J. Berque, Le Coran essai de traduction, Paris, A. Michel, 1995
4) J. Grosjean, Le Coran, P. Lebaud, 1988
5) صلاح الدّين كشريد، تلقينِ الأعاجم الراغبين في تأويل الكتاب العربي المبين وما يعلم تأويله إلا الله. نقل معانيه بالفرنسية وحشاه صلاح الدين كشريد، دار الغرب الإسلامي، ط7، بيروت، 1988.
6) جهادي الحسين باعمراني، ترجمة القرآن إلى الأمازيغية، مطبعة النجاح، الدّار البيضاء، 2003.

وي نس" أي : "العرش ملك له". وإن الأمر ليتعقّد عندما يقع التعرّض إلى ترجمة مقاطع قرآنية مثل : "نساؤكم حرث لكم فأتوا نساءكم" أو" اشتعل الرأس شيبا" أو "هن لباس لكم وأنتم لباس لهنّ".

وإذا وجدنا ترجمة تحاول الخروج على المألوف وتلتصق بالعبارة القرآنية في تطورها الدلالي التاريخي وفي علاقتها بالجذر السامي الذي تشترك فيه مع العبرية مثل ترجمة شوراقي،[1] فإنها رغم نجاحها أحيانا في الوفاء لدلالة النص وللصيغة اللغوية المجازية المعبرة عنها تؤول أحيانا أخرى إلى الغموض وإلى جعل القرآن مؤكدا لبعض التصورات الدينية اليهودية. فتختلط نعومة الهاجس المعرفي بالهاجس الإيماني الإيديولوجي، مما يجعل ترجمة القرآن بهذه الصيغة ضد مقاصد القرآن أحيانا وفي نصرة اليهودية. لقد نجح شوراقي حقيقة في ترجمة بعض الكلمات وجعلها في صيغتها المترجمة تنقل الفكرة والصورة معا مثل "رحمان رحيم" و"أمة" في قوله تعالى "بسم الله الرحمان الرحيم" وفي الآيات 141 و143 من سورة البقرة "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم" و "كذلك جعلناكم أمة وسطا". فترجم الرحمان بـ **(matriciant)** والرّحيم بـ **(matriciel)** وأمّة بـ **(matrie médiatrice)** من الأم الواحدة بدل **(communauté)** و**(génération)** ولكنه حقيقة جعل النص غامضا غير ناطق بمعانية بل معناه خاطئ أحيانا عندما اعتمد نفس الطريقة في ترجمة بعض الكلمات الأخرى أي العودة إلى المعنى الأصلي وربطه بمقابله العبري. لقد ترجم (كفر) في قوله تعالى "إن الذين كفروا سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم" (البقرة، 6) بـ **(effacer)** بدل **(mécroire)** أو **(denier)** لأن (كفر) العربية مثل **(kepara)** العبرية تعبر عن الكفر بهذه الطريقة. وترجم (أهل الكتاب) بـ **(tentes de l'Ecrit)** بدل **(gens du livre)** لأن (أهل) تدل في الأصل على الخيمة التي أصبحت تدل فيما بعد على ساكنيها أي على العشيرة والقبيلة والشعوب و(راعنا) في قوله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا أنظرنا" (البقرة، 104) بـ **(sois notre berger)** بدل **(considère nous)**

---

1) A.Chouraqui, L'Appel, op. cit

والمسجد الحرام في : "فـولّ وجهك شطر المسجـد الحـرام" (البقرة، 144) بـ (la mosquée interdite) بدل (la sainte mosquée) رغم أن عبارة الحرم في العربية تدل أساسا على الاستعداد للانخراط في ما يعتبر مقدّسا، وإن كانت تعبر عنه من خلال معنى المنع والحظر والتحريم لا الإهلال. وعلى كل حال فليس هذا المكان محرما على غير المؤمنين كما شرح ذلك شوراقي بل المحرم فيه لقداسته هو القتال والصيد والتصرف كما لو كنا في مكان مدنّس. وفي ترجمات أخرى تصبح النصوص القرآنية من خلال بعض ألفاظها كما فهمها وترجمها شوراقي دالة على معان يهودية مركزية. فقد ترجم :"وامسحوا برؤوسكم" (المائدة،6،5) (messiez-vos têtes) انطلاقا من التشابه بين الفعل العربي (مسح) والفعل العبري (مشح)، ولكن هناك فرق بين مجرد المسح والمسح الذي له دلالة عقائدية. فالمسح في اليهودية بالزيت طقس من طقوس التنصيب الملكي التي تجعل الملك نائب الله في إسرائيل، وفي المسيحية مسح الله يسوع بالروح القدس في العماد مسحة اعتبرت في نظر المسيحيين بشارة بالرسالة. وينال المسيحي وقت العماد مسحة روحية دالة على الإيمان بكلمة الحق. ولا علاقة بين مجرد المسح بالماء والمسح بالزيت أو المسح بالروح القدس. وكان يحسن استعمال الفعل العـادي (laver) لا مـادة لغوية لها صلة متينـة بمصطلـح مركزي في اليهودية والمسيحيـة. في نفس الاتجـاه نذكر أيضـا "هـدى للمتقين" التي ترجمهـا بـ (guidance des frémissants) لأن من جملة ما تدل عليه مادة وقى المهابة. جاء في لسان العرب فرس واق إذا كان يهاب المشي، وقيل فرس واق إذا حفي من غلظ الأرض ورقة الحافر فوقى حافره الموضع الغليظ. وإن المهابة التي يجدها الفرس لتشبه ارتجاف الإنسان أمام المقدس ويهوه، ولهذا السبب يمكن نقل (المتّقين) بـ (frémissants) في نظر شوراقي. يمكن اعتبار منهج شوراقي هو الذي أدى به إلى جرّ معاني القرآن إلى اليهودية والمسيحية. وهذا أمر رغم خطورته يبقى شرعيا. وهو على حال يختلف عن الترجمات التي تعمدت الخطأ وسعت عبر ذلك إلى تحقيق مقصد عقدي أو إيديولوجي. وفي المسيحية والإسلام نجد العديد من الأمثلة الدالة على اقتراف بعض الأخطاء في الترجمة إما لتأكيد بعض المسلمات العقدية أو التهجم على الأديان. فقد اعتمد المسيحيون

على ما ورد في إشعيا : "ها إن الصّبيّة تحمل فتلد ابنا وتدعو اسمه عمّانوئيل" (إشعيا،7، 14) الذي اعتمد عليه متّى : "ها إن العذراء تحمل فتلد ابنا يسمّنه عمّانوئيل" (متّى،1، 23) لتأكيد الولادة البتولية. لكن بالعودة إلى النسخة العبرية التي اعتمدتها السبعينية النسخة اليونانية نلاحظ أنه وقع انزيـــاح عن النص. فالعبارة الموجودة هي **(halama)** لا **(bethoula)** وينبغي ترجمتها في اللغة اليونانية بـــ **(neanis)** التي تعني صبية لا **(parthenos)** التي تعني عذراء[1]. ورغم ذلك أصرّ اللاهوتيون على هذه الترجمة. نفس الظاهرة تلاحظ في المزمور **XVI**، فقد وقع نقل لفظة **(fosse)** بـــ **(corruption)** مما مكّن القراءة المسيحية للفصل **XIII** من أعمال الرسل من أن تجد فيها دليلا على قيامة عيسى.[2]

مع ترجمات القرآن الأولى وحتى التي ظهرت أخيرا، أراد بعض المسيحيين الغربيين لمقاصد جدلية سجالية صناعة صورة مخصوصة عن الإسلام تساعد على تهافته واتخاذ النص القرآني سلاحا حتى يبدو الرسول محمد غشاشا والإسلام فاسدا. ويعتبر بطرس العجائبي واضع هذه الإستراتيجية والساهر على تنفيذها. فقد انبهر أثناء زيارته طليطلة في الربع الثاني من القرن 12 بما حقّقه المسلمون في الأندلس ولكنه ظل مذعورا من قبل منافس المسيحية العملاق الإسلام. ولهذا رام معرفة أصول الإسلام وطلب من روبير كنتون **(Robert de Kenton)** ترجمة القرآن إلى اللاتينية عساها يتمكن من اختراق الإسلام ومهاجمته من الداخل. وإذا كانت الهفوات التي وقعت في السبعينية تعود إلى رغبة في تأكيد بعض العناصر العقدية، فإن حالة التأزم الديني السياسي بين الإسلام والمسيحية هي التي ستتحكّم في ترجمة النص القرآني وتجعلها دائما معبّرة عن عدوانية سافرة نحو الإسلام. وتعتبر ترجمة كنتون في نظر شوراقي أحسن مثال دال على تطبيق الرأي المشهور الترجمة خيانة.[3] فيها تعمّد صاحبها في نظر نورمان دانيال[4] تشويه بعض النصوص

---

1) Charles Guignebert, La vie cachée de Jesus, Paris, Flammarion, 1921, p117

2) Bible-Les traductions de la Bible, Encyclopédie Universalis

3) A.Chouraqui, L'Appel, Paris, R.Laffont, 8, 1990.

4) N.Daniel, L'Islam et l'Occident .

المسالمة حتى تبدو مقيتة أو إباحية وتفضيل تأويلات بعيدة الاحتمال ولكنها مكروهة على تأويلات هي أقرب للنص ولكنها لائقة محتشمة. ولذلك لن نستغرب إذا ما ترجمت كلمة (الصمد) من سورة الإخلاص بالكوكب، مما يوحي بأن المسلمين وثنيون وعبدة كواكب وإذا ما تحوّل اسم الرسول محمد إلى **(Mamomet)** ثمّ إلى **(Maumet)** فــ **(Mammet)** التي دلت في البداية على معنى الصنم ثمّ تطورت دلالتها إلى معنى الدمية أو لعبة عرائس مثلما استعملها شكسبير في روميو وجوليت [1].

ولن تشذ أهم الأعمال الحديثة [2] التي انكبّ أصحابها على ترجمة القرآن عن النواة العميقة التي وضع لبناتها بطرس العجائبي وإن اتخذت مسحة علمية وادّعت الاستفادة من الحداثة وأعلنت رغبتها في تحديث الإسلام من خلال مراجعة المسلمات التي ترسّخت في السنة المعرفية الإسلامية وأسّست لنشأة المصحف تاريخيا ولفهم القرآن منهجيا. ومن حق العلم والعلماء طرح جميع الأسئلة والنظر في جميع الفرضيات والخروج عن السنة الثقافية السائدة ومجادلتها إذا تعلّق الأمر بترجمة القرآن وتكوّن المصحف وبحياة الرسول وأقواله وأفعاله، فهذا أمر منشود. وقد استفادت اليهودية والمسيحية من جلّ المباحث التي شرّحت تاريخ الديانتين ونقدت بقوة الكتاب المقدّس وشكّت حتى في نسبة موسى إلى اليهود وفي وجود عيسى ذاته تاريخيا ونحجتا في بناء ديانتين متلائمتين مع الحداثة فكريا ومتجذّرتين في نفس الوقت في العقائد إيمانيا.[3] أما أن تتخذ المعرفة أثناء ترجمة القرآن ذريعة لتغطية مقاصد

1) أليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص77.

2) انظر الأعمال التالية على سبيل المثال :

- Christoph Luxenberg, Die syro-aramaische Lesart des Koran Ein Beitrag zur Entschlusselung der Koransprache Berlin, Das Arabische Buch, 2000.
- Alfred-Louis de Prémare, Les fondations de l'Islam, Entre écriture et Histoire, Paris, Seuil, 2000.
- Rémi Brague, Le Coran : Sortir du cercle ? Critique numéro 671, Avril , 2003.
- Frère Bruno Bonnet-Eymard, Le Coran, Traduction systématique, La Contre-Réforme Catholique, Saint-Parres-lés-Vandes, France, 1988.

3) انظر على سبيل المثال :

- S, Freud, Moise et le monothéisme, Paris, Gallimard, 1948 et le christianisme antique, Paris, P.U.F, 1968. - M.Simon et A.Benoit, Le judaisme.

ايديولوجية ولتمرير مشروع وضعت عناصره في القرون الوسطى، فهذا أمر مرفوض علميّا ومدان أخلاقيا وخطر اجرائيا ويعرفه جل العلماء الذين حرصوا على جمع أبناء ابراهيم في خيمة واحدة.

لقد تصدى الباحث المعروف بالاسم المستعار كريستوف ليكسنبـــارق (C.Luxenberg) إلى توضيح بعض المقاطع القرآنية التي بدت في نظره غامضة وكانت موضع خلاف كبير بين المفسرين الذين لم ينجحوا في إزالة الغموض وفي إيجاد علاقة منطقية بين لغة القرآن المنطوق بها وتفاسيرهم. وحتى يكشف عن القرآن الأصيل و"ينظّفه" مما يعتبره غير جدير به، [1] ويوجد تناغما بين اللغة أداة لفهم القرآن وترجمته. والذي حمله إلى ذلك أمور منها أن العربية والأرامية لغتان ساميتان توأمان بينهما رصيد لغوي مشترك، وأن اللّغة السريانية الأرامية هي اللّغة السائدة في تلك الفترة، وأن القرآن يزخر بالدخيل، وأن كبار العلماء الذين ساهموا في بناء الفكر الإسلامي وتفسير القرآن قد كانوا ملمّين بالسريانية والأرامية والعبرية قبل أن يفد النبي إلى المدينة مثل زيد بن ثابت وواعين مثل الطبري بالمقاطع القرآنية التي لم ينجح المسلمون في إيجاد اتفاق حولها نتيجة لغتها.

على هذا الأساس المعرفي الموضوعي، أصبح من الأكيد في نظر كريستوف ليكسنبارق ومن نحا منحاه مراجعة فهم القرآن وترجمته والتخلّص من التفاسير المغلوطة التي أساءت فهم لغة القرآن والتحرّر من البحوث التي بنت أحكاما شرعية على أسس واهية. ولن تكون ترجمة القرآن بهذه الطريقة ترجمة لتأويلات المفسرين بل ترجمة للنص المقدّس ذاته يترتب عنها - نظرا إلى التصاقها الحميم بالقرآن ووفائها له - مجادلة السائد في الفكر الإسلامي كلاميا وعقديا وفقهيا. وانطلاقا من هذه المنطلقات بدأت عملية التّصحيح والترجمة الحق. فلم يعد ينظر إلى كلمة (حور) التي وردت في الآية القرآنية : ﴿ **وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ (سورة الواقعة 56،22-23) وفي

---

1) لمعرفة ما ينشر في هذا الاتجاه انظر بعض المواقع :
www.volle.comwww.probof.com/terrorisme/hourrashouris.htm/ www.coranix.com/

الآية ﴿ **كذلك وزوّجناهم بحور عين** ﴾ (سورة الدخان 44، 54) أو في الآية ﴿ **وعندهن قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون** ﴾ (الصّافات، 37، 48-49) على أنها اسم يدل على نساء بيض واسعات الأعين حسانها بل نظر إليها من خلال معناها في السريانية على أنها نعت مؤنث دال على البياض وتكون كلمة عنب فيه ضمنية، بحيث أن معناها الحقيقي هو العنب الطازجة أو الشراب من عنب. ولهذا ينبغي استبدال النساء بشراب العنب الطازجة الذي يتذوقه المتقون مقابل الشراب الحميم المعد للكفرة. وهذا الفهم الذي يستند إلى مطلب شرعي وأكيد يتمثّل في إعادة تحقيق القرآن وإعادة قراءة الآية 54 من سورة الدّخان (44) على ضوء هذا التحقيق الجديد "كذلك وروحناهم بحور عين" أي بحذف النقاط من الزاء والجيم، من شأنه أولا أن يقوي المعنى الذي يترجم الحور بالشراب فالمؤمنون يشربون هذا العصير في راحة وأن يجعل النص القرآني متناغما مع نفسه، ثانيا لأن القرآن نفسه يذكر أن الأزواج يصاحبهن أزواجهن إلى الجنة : ﴿ **إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متّكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون** ﴾ (ياسين، 36، 55-57). ولا يمكن أن نتصور أن نساء المؤمنين قد وجدن أنفسهن في الآخرة في وضعية حرجة متأتية من وجود ضرائر لهن في الآخرة. فتكون مكافأة المؤمنين بمعاقبة المؤمنات، وهذا أمر مرفوض.

وانطلاقا من هذه المنهجية وقف كريستوف ليكسنبارق عند جلّ الألفاظ القرآنية التي وجد حولها اختلاف. فترجم (الكوثر) في سورة الكوثر بفضيلة الصبر و﴿ شانئك الأبتر ﴾ بالشيطـــان المنهزم أو المنكسر ولم ينشغل بالمعاني التي اعتبرت الكوثر نهرا في الجنة وشانئك الأبتر مرتبطة بالعاصي بن وائل الذي سمّى النبيّ بالأبتر عند موت ابنه القاسم. وبالنسبة إلى ليلة القدر نقل كلمة (قدر) إلى الآرامية هلكه (**Helqa**) وانطلاقا من معنى هلكه الآرامي الموجود في المعاجم : نجمة الميلاد أصبحت سورة القدر دالة على نجمة ميلاد عيسى التي رآها مجوس في المشرق وجاءوا من أجلها إلى القدس ليسجدوا لملك اليهود (متّى،1، 2) لا بنزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا

أو بمذنّب هالي كما ذهب إلى ذلك غيره[1] لا سيّما أنها تحتوي على ثلاثة عناصر هامة صاحبت الميلاد وذكرت في السورة القرآنية هي الملائكة والسلام والليل. أما بالنسبة إلى كلمة (قرآن) الواردة في سورة يوسف : ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربيّا لعلكم تعقلون** ﴾. (يوسف،12-2) وسورة القيامة ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأنه فاتّبع قرآنه** ﴾ (القيامة، 75،17-18) وغيرها من الآيات، فهي حسب السريانية دالة على المنتخبات المأخوذة من النصوص المقدّسة الموجودة من قبل. وسيعتمد كريستوف ليكسنبارق على نفس المنهجية والمرجعية أثناء ترجمته لقوله تعالى : ﴿ **وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن** ﴾ (النور،24،31). ولن يترجم كلمة الخمور بـــ **(voile)** أو **(fichu)** مثلما فعل ذلك كاسيمرسكي وبلاشير وبارك وشوراقي وحميد الله، جريا على ما هو سائد لدى جل الفقهاء المسلمين وكلمة جيوب بـــ **(sein)** كاسيمرسكي أو **(gorge)** بلاشير وشوراقي أو **(poitrine)** حميد الله، بل نظر إلى معنى كلمة ضرب وخمور وجيب انطلاقا من اللغة السريانية وبالاعتماد على الموروث الثقافي وعلى الممارسات في التاريخ الإسلامي والغربي على حد السواء. فأصبحت كلمة خمور دالة على الحزام ويؤيّد هذا التجديد في نظره أن ضرب في السريانية الآرامية مقترنة دائما بكلمة حزام. وأصبحت الجيوب مرتبطة بالأوراك لا بالرؤوس والأعناق والصدور. وحتى يقنع بما ذهب إليه عاد إلى وقائع تاريخية منها اعتبار الحزام لدى المرأة علامة تخلّق ومطالبة الرجال أثناء الصلاة بالتحزّم وشدّ الراهب وسطه بحزام قصد الفصل بين جزء الجسد العلوي السامي والسفلي المادي ومنع العاهرات في القرون الوسطى من الاحتزام لأنه لا فرق لديهن بين الجزء الأعلى أو الأسفل من الجسد. وعليه ينبغي أن نفهم أن معنى الآية الحقيقي الذي ينبغي ترجمته هو فليضعن أحزمتهن على أوراكهن.

إن العمل الفيلولوجي الذي قام به كريستوف ليكسنبارق يبقى شرعيا على مستوى المعرفة اللغوية المقارنية بقطع النظر عن مقاصده. وهو على كل حال يختلف عن الترجمة التي اضطلع بها الأخ برينو بوناي ايمار (**F. Bruno**

---

1) Jean Lambert, Le Dieu distribue, une anthropologie comparée des monothéismes, Cerf, Paris, 1995

(Bonnet-Eymard فقد اقترح ترجمات لا تقل غرابة عما اقترحـــه كريستـــوف ليكـــسنبارق عندمـــا ترجـــم "قائما بالقسط" (آل عمران، 3، 18) بـــ **(debout avec l'arc)** و" أولئـــك لهم عـــذاب أليـــم" (آل عمران، 3، 105) بـــ **(voilà ceux dont sont abandonnés les ossements)** و"إن الله عليـــم بذات الصـــدور" (آل عمران،3،119) بـــ **(Quand au Dieu, il est toujours selon ce qui est dans les leçons de l'Ecritures.)** ولكن الأغرب من ذلك أنه لم يكن في ترجمته ملمّا بالعربية وقواعدها. فقام بأخطاء تتعلّق بالصرف والنحو والبلاغة وخلط بين واو الحال والعطف وبين الإثبات والأمر والتمني والاستفهام، ولم يحترم بنية الجمل التلازمية. ورغم هذا التصرّف في النص القرآني وفي قواعد العربية الدال على الجهل أو على ارتكاب الأخطاء الواعي أصرّ على فهم لغة القرآن العربية من خلال العبرية وادّعى في نفس الوقت أن عملية شكل النص القرآني وضبط ألفاظه عمل نقدي ضروري تستدعيه الحالة التي عليها النص القرآني. ولهذا وحتى يستجيب عمله للأطروحة التي يدافع عنها أكثر من استجابته لمنطق النص القرآني وسياقاته تلاعب بالنص القرآني وبالغ في ذلك حسب عبارة لقارد.[1] ومع ذلك لا يوجد فرق كبير بين مقاصد كريستوف ليكسنبارق ومقاصد الأخ برينو بوناي ايمار. فكل منهما يروم إرجاع عربية القرآن إلى أصولها العبرية والآرامية والسريانية إذا أردنا حقيقة أن نفهم الرسالة القرآنية ومحتوى القرآن إلى مصادره الكتابية وإذا أردنا التحرر من المقاطع الغامضة فيه. ولهذا لم يعد القرآن إلا نسخة من الكتاب المقدّس والرسول محمد مجرد مقلّد لم ينجح في إخفاء مصادره.

فمصدر سورة الكوثر التي ترجم فيها إن شانئك هو الأبتر بالشيطان المنكسر ليترجيا سريانية تستند إلى تذكّر آيات وردت في رسالة القديس بطرس الأولى : "أُصْحوا واسهَروا لأن ابليس خصمَكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلِعُه هو، فقاوموه راسخين في الإيمان" (رسالة بطرس الأولى،5، 8-9) حسب

1) Michel LAGARDE, Frère Bruno Bonnet - Eymard, Le Coran, Traduction Systématique, La contre - Réforme Catholique, Saint – Parres – lés - Vandes, France, 1988, Islamochristaiana, 15/16.

ما هو موجود في البشيتو (**Peschitto**) ترجمة الكتاب المقدّس إلى السريانية. والحديث عن عصير العنب في الآخرة عوض الحور العين لا يختلف عن رمزية المأدبة الأخروية الموجودة في الكتب المقدّسة السابقة وعن أناشيد الجنة التي ألفها القديس افرام النيسبي (**Ephrem de Nisibe**) المعروفة أعماله في الأوساط القرآنية. وليس القرآن حسب دلالة لفظه المعجمية وما ترتب عليها من ترجمة الآيتين 17 و18 في سورة القيامة : "إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه" (القيامة، 75، 17-18) بـــ **«Il nous incombe de le (le Coran, le lectionnaire) compiler (à partir d'extraits de l'écriture) et de l'exposer»** إلا مجرد منتخبات مأخوذة من نصوص مقدّسة سابقة لا يمكن أن تكون إلا الكتاب المقدّس. وإذا كان القرآن قد ميّز بين الآيات المحكمات والمتشابهات وذكر دائما أم الكتاب فلا يتعلّق الأمر بالنسخ أو بالقرآن السماوي الموجود في اللوح المحفوظ مثلما ذهب إلى ذلك جلّ المفسرين والمترجمين بل بالكتاب المقدّس الذي يعتبر أم الكتاب. وإذا وقع التمييز بين المحكم والمتشابه فذلك للتمييز بين النصوص القانونية التي تعتبر من المحكمات والنصوص المنحولة التي تعتبر من المتشابهات. وعلى هذا الأساس يمكن أن نعتبر أن الإسلام والمسيحية دين واحد وأن المسيحية تتجلى خاصة في السور المكية أما السور المدنية فهي معبرة عن الجزء السياسي والاجتماعي فيه.

3 - المقـــاصـــد :

لا خلاص إذا إلا بالعودة إلى أصول القرآن اللّسانية والفكرية إذا أردنا فهم القرآن وترجمته وهي بالأساس سامية إغريقية يهودية مسيحية وإلى مترجمين على غرار طراز كريستوف ليكسنبارق، ودون ذلك يظل القرآن كتابا صامتا غير مفهوم. وما الترجمات التي قدمها المستشرقون اليوم سوى ترديد لنفس الأوهام التي تعلّق بها المسلمون قديما والأخطاء التي وقعوا فيها. فهم لم يترجموا القرآن بل ترجموا ما فهمه المفسرون المسلمون ولم يعتمدوا على المنهج المقارني العلمي بل اعتمدوا مثل المسلمين على مصادر مرفوضة مثل السّنة لأنها منحولة ومجرد تمثّل، والشعر الجاهلي الذي لا علاقة له بلغة القرآن. ولهذا يمكن أن نعتبر أنه لا يوجد قرآن أو إسلام مستقل عن التراث

الكتابي وأن المسلمين يجهلون حقّا قرآنهم وأنهم فقدوا مفتاحه وجهلوا معناه وبالتالي ليس من حقهم أن يتكلموا باسمه، مما يجعل عملية التصحيح أو "التنظيف" واجبة حتى وإن كانت لها انعكاسات خطيرة على العقيدة. فلم يدّع القرآن أنه وحي جديد وأنه ينسخ السابق ويبدّل الموجود ويبتكر أفقا روحيا جديدا بما أنه مجرد منتخبات من الكتاب المقدّس وصياغة التراث الكتابي صياغة مفهومة من قبل العرب. إنه كتاب ليترجي متكون من نصوص العهد القديم والجديد لا غير، لا علاقة له بالله، ولا يمكن تبعا لذلك مواصلة البحث في طبيعته إن كان قديما أم حديثا كما فعل علماء الكلام سابقا. ومن حق المحاكم الغربية اليوم إذا تصدت لقضايا الحجاب والإرهاب أن تكون معبرة عن الحقائق العلمية وتستنير بما وصلت إليه المعرفة الحديثة. فلا حجاب ولا تشادور في الدنيا ولا حور وكوثر في الآخرة. ومن جاهد في الدنيا من أجل الحور العين في الآخرة فقد أخطأ. ولم يعظّم المسلمون ليلة يسمونها ليلة القدر والحال أنها ليلة ميلاد المسيح ؟ على المسلمين إذا أرادوا أن يكونوا أوفياء لإسلامهم حقا أن يتوجهوا إلى القدس لا إلى مكة وأن يكونوا بكل بساطة مسيحيين بما أن الأدلة على ذلك موجودة في قرآنهم.

هل يمكن للعلم الحديث أن يستفيد من ترجمات كريستوف ليكسنبارق والأخ برينو بوناي ايمار؟ وهل لها شرعية الوجود معرفيا إذا وقفنا عند أصولها النظرية وتطبيقاتها العملية ؟ ما فائدة ترجمة النصـوص الدينية إذا كان المترجم مثل روبير كنتون بالنسبة إلى القرآن أو عقيلا **(Aquila)** (القرن **II**) بالنسبة إلى الكتاب المقدّس يتعمد قصدا المغالطة بغية تحقيق أهداف ايديولوجية ويجاهر بعدائه للإسلام أو للمسيحية أو يتعسّف على النص حتى يجعله ينطق أحيانا بما ليس فيه مثلما هو الشأن أحيانا وليس دائما لدى شوراقي الذي تستند ترجماته إلى بحث لغوي جدي ولكن توظيف نتائج ذلك البحث فيه نظر ؟ وهل إنّ فهم النصوص المقدّسة وترجمتها فيما بعد يعتمدان فقط على الشرح اللّغوي الفيلولوجي وعلى النقد العلمي الذي يفهم النصوص الدّينية فهما لغويا ولا ينشغل بمعنى الألفاظ الذي ضبطه المؤسّسون أنفسهم وأجمع عليه المؤمنون دون أن توجد بين المسلمين سلطة تعليمية رسمية مثل الكنيسة ؟ وهل تضبط أصالة

النصوص الدينية قبل ترجمتها بالاستناد إلى العمل النقدي العلمي أم إلى التقرير القانوني العقدي الذي يشهد أصحابه شهادة تلزم ضمائرهم وتريح عقولهم أن كتابهم المقدّس هو القرآن على الحالة التي هو عليها مثلما تدبّروه وفهموه أو الكتاب المقدّس على الحالة التي هو عليها مثلما تدبّروه وفهموه ؟ وإذا كان المسلمون يعتقدون أن الوحي كلام لا شخص وأنه موجود في المصحف بالقراءات التي اتفقوا عليها وتواضعوا فهل من حق أي باحث أثناء ترجمته القرآن أن يتجاهل هذه المسلمات باسم البحث العلمي والحرية النقدية؟ ألا يواجه في مثل هذه الحالة العقائد وحتى الأسرار بسلاح لا قيمة له في مجال الاعتقاد؟ فمن يروم إفهام المسلمين أن فهمهم القرآن غير سديد كمن يروم إفهام المسيحيين أن اكتناههم حقيقة المسيح مبني على أوهام. وفي كلتا الحالتين يقع تصادم بين ما يعتقده المؤمنون وما يقترحه الباحثون مما يجعل الترجمة أداة تكرّس القطيعة لا التواصل بين مختلف الأديان وتقضي على أسباب الحوار بين المؤمنين عوض أن تكون جسرا يقرّب المختلفين وعنصر إثراء وتنوّع رغم الاختلاف.

من الناحية العلمية لا معنى لفهم نظام لغوي من خلال نظام آخر حتى وإن كانا ينتسبان إلى نفس العائلة. فالإيطالية غير الفرنسية وإن كانت اللاتينية أصلا مشتركا، والعربية غير السريانية أو العبرية وإن كانت السامية أصلا مشتركا. ولهذا فعندما يفهم ليكسنبارق أو برينو بوناي ألفاظ القرآن العربيّة من مداخل عبرية أو أرامية فإنهما في الحقيقة كمن ينتقل من نظام علامي إلى آخر أو كمن يريد أن يفهم الفرنسية من خلال اللغة الإيطالية. وهذا ما أدى في الغالب إلى التعسّف وانتهاك قوانين اللغة العربية الصرفية والنحوية والبلاغية وجعل المعنى الجديد مؤسسا على هذا الانتهاك. ولا يمكن لترجمة أن تحظى بالتقدير إذا كانت تتصرّف في النص الأصلي حسب الأطروحـــات التي تدافع عنها بدعــوى أن القرآن لم يحقق تحقيقا نقديا علميا. فقد اعتبر المارقينيون **(les Marcionites)** – على سبيل المثال – الجزئين الأوّل والثاني من إنجيل لوقا زائدين لمجرد حذف أداة العطف في الإصحاح الثالث منه : "وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر،" مما جعل الكنيسة تتهمهم

بالهرطقة[1]. فإذا كان تصرف بسيط في الإنجيل من شأنه أن يؤدي إلى التكفير ويثير اختلافات كبيرة في نطاق الدين الواحد، فمن باب أولى وأحرى أن يكون هذا التصرف ممنوعا في الأديان التي تعتبر مثل الإسلام أن الوحي هو حدث لساني لا بيولوجي وأن ما اعتبروه كلام الله والتزموا به وجوديا وعقليا موجود في القرآن على الحالة التي هو عليها منذ أن اعتبروه كتابا قانونيا ذا سيادة. هذا موقف مبدئي لا نقاش فيه من الناحية المعرفية لا الإيمانية لأنه لو جاز مراجعة الوحي وإعادة النظر في قانونية الكتب المقدّسة، لأصبح بالإمكان مثلا التصرّف في كيان المسيح أساس الوحي المسيحي بالزيادة والنقصان وإيجاد مسيحية جديدة. ولئن جاز في العلوم الصحيحة والفيزيائية قلب الحقائق رأسا على عقب وإحداث ثورات نتيجة الاكتشافات العلمية الحديثة فمن الصعب علميا في العلوم الإنسانية، وفي الأديان خاصة، الدّفاع عن ثورات في التأويل والفهم مثلما يدّعي ذلك ليكسنبارق.

وعموما ينبغي أن نقيّم بنفس المعايير موقف المسلمين من ترجمة القرآن وموقف المسيحيين الكاثوليك في المجمع التريدنتي وفي الفاتيكان الثاني من ترجمة الكتاب المقدّس اللاتينية وموقف الأرثودكس من السبعينية. فقد اعتبر المسيحيون أن ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللاتينية التي اضطلع بها في حدود سنة 391 م القديس جيروم انطلاقا من العبرية أو الأرامية ترجمة رسمية وأصلية بالمعنى القانوني لا بالمعنى النقدي المتعلّق بقيمة الترجمة أي إنها لا تحتوي على أخطاء متعلّقة بالعقيدة والإيمان. وعلى هذا الأساس القانوني لا النقدي لا ينبغي أن ننتظر من المسلمين أن يعترفوا بترجمة تنسف أصول اعتقادهم وتدمّر ما يعتقدون أنه الحق وتحوّل القرآن إلى مجرد منتخبات مأخوذة من الكتاب المقدّس. فالمجهود العلمي على قيمته، لا سيّما إذا كان يستند إلى خطاب نقدي متماسك داخليا، لا يمكن أن يحلّ محل الخطاب القانوني في الأديان. ولقد انزاحت السبعينية ترجمة الكتاب المقدّس اليونانية عن النص العبري الأصلي انزياحا كميا : التصرّف في عدد الكتب، وكيفيا : ترجمة

(1 Paul Hazard, La crise de la conscience européenne, 1680-1715, p.133

الألفاظ بغير معناها، مثل ترجمة لفظة صبيّة بعذراء. ورغم هذا الانزياح الخطير ظلّت الكنيسة الشرقيّة تعتبرها ترجمة رسمية أصيلة معبرة عن عقائدها. يترتّب عن هذا التمييز في الأديان بين العمل العلمي والقانوني ضرورة ترجمة القرآن وفق النصّ الذي أقرّه المسلمون أنفسهم وإلا سقطنا في الايدولوجيا وفي الاستثناء أي عاملنا القرآن بغير القوانين العلمية المطبّقة على الكتاب المقدّس.

وفضلا عن هذا لا ندري لم سكت ليكسنبارق عن كل المواقف التي تعلّقت بفهم الكلمات التي اختلف فيها أهل التأويل وإنما اقتصر على ذكر معنى واحد مثل النهر بالنسبة إلى الكوثر والسارية. فلم يكن المسلمون متفقين على معنى الكوثر جاهلين بأصول عبارة سارية الأجنبية وحتى عندما ذكرت بعض الأحاديث النبوية لتدعيم شرح السارية بالجدول اعتبرت هذه الأحاديث ضعيفة جدا وأصحابها من متروكي الحديث فلا يعوّل عليهم.[1] وأما بالنسبة إلى كوثر فلم يتقيّد المسلمون كذلك بالمعنى اللغوي المعجمي مثلما فعل ليكسنبارق بل سعوا إلى فهم الكلمة من خلال السياق ومن خلال المعاني التي يرونها جديرة بالعطايا الإلهية.

ولهذا لم يكن الأمر متعلّقا فقط بفضيلة الصبر كما ذهب إلى ذلك ليكسنبارق دون إقناع بل بكل خير كثير مثل العلم والنبوة والقرآن والنسل والحكمة، وإن اعتمادهم في التفسير على السياق المعنوي لا على الشرح اللغوي المعجمي قد جعلهم ألصق بدلالة النص العلمية والروحية لا اللغوية. ولسنا ندري أيضا لم يلجأ ليكسنبارق إلى الثقافات ليبرز، عندما لا تسعفه الآرامية، أن المقصود بالجيوب في قوله تعالى : "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" (النور،24،31) هـو الأرداف، والحال أن الثقافة العربيّة عبر ما هو موجود في التفاسير وفي التاريخ تقدم الجيوب على أساس أنها الصدور والذوائب والنحور، وتعتبر أن الخمر جمع خمار وهي ما يخمّر به أي يغطّى بـه الرأس وهي التي تسميها العامّة المقانع وتدل المقابلات بين المرأة الجاهلية التي تمرّ

1) انظر على سبيل المثال تفسير ابن كثير، سورة مريم، 19، 24.

بين الرجال مسفّحة بصدرها لا يواريه شيء والمرأة المسلمة التي تعتجر بالمرط المرحّل وتبدو وكأن على رؤوسهن الغربان على حد عبارة عائشة. [1] على أن الخمر تشدّ على الرأس لا على الأرداف مثلما ذهب إلى ذلك ليكسنبارق. فهل توجد وراء هذا الاجتهاد الجديد غير المستند إلى منهج سديد انتهازية سياسية من شأنها أن توهم المحاكم الألمانية بأن الحجاب الذي ترتديه المؤمنات المسلمات لا علاقة له بالإسلام وبأنه من حق المجتمع الألماني المسيحي أن يحمي نفسه من ذلك بطردهن من المعاهد أو بتقييد حريتهن.

ولن نقف عند الترجمات التي لمجرد الشبه السطحي الموجود بين الأحداث التي تذكرها الأديان أرجعت ليلة القدر ليلة نزول القرآن في الضمير الإسلامي إلى ليلة الميلاد في المسيحية وقرنت بين سورة الكوثر وما ورد في رسالة بطرس الأولى واعتبرت أن الآيات المحكمات الموجودة في القرآن في سياق الحديث عن النسخ والتبديل إنما هي نواة مسيحية موجودة في قلب القرآن وشاهدة على أنه نص كتابي. فالبحوث التي اضطلع بها الأساقفة في الغرب والمشرق وحاول أصحابها بيان أن الإسلام دعوة نصرانية أو يهودية كثيرة، ولا نذكّر بأشهر مؤلفيها الأب تيري **(Père Théry)** المعروف في البداية بالاسم المستعار حنا زكرياء **(Hanna Zakaria)** والأستاذ الحداد مؤلف الإسلام دعوة نصرانية إلا لنبرز أن هذه المؤلفات لم تضطلع برسالة علمية بقدر ما سعت إلى الاعتداء بعدوانية مكشوفة على ضمائر المسلمين مؤمنين وعلى كتابهم القرآن وأن الزمن قد عفا عليها. ولا يمكن أن تلعب ترجمة النصوص الدينية المقدّسة دور المقرّب بين المؤمنين وتكون أداة حوار ووئام إذا آلت إلى تدمير ما يعتبره المؤمنون أساس وجودهم وكيانهم. فليست النصوص الدينية وإن كانت اللغة أساسها مثل أي نص آخر نصوصا إبداعية مبنية على التجاوز والتخييل.

---

1) انظر على سبيل المثال تفسير ابن كثير، سورة النور 24، 31،
انظر كذلك Fathi Triki, Les philosophes et la guerre, Presse de l'université,Tunis, 1985.

واللاّفت أن ترجمات القرآن منذ أوّل ترجمة اضطلع بها الغرب المسيحي ترجمة روبير كنتون إلى أحدث ترجمة قام بها كريستوف ليكسنبارق والأخ برينو بوناي ايمار لم تخرج عن الخطة التي وضع ملامحها بطرس العجائبي وأساسها تدمير الإسلام من داخل القرآن بتقديم صورة مشوّهة عنه محرّفة ومنبوذة. ولا فرق في هذا السياق بين من جعل من الصّمد كورة معلّقة في السماء ومن اسم محمد عبارة دالة على الصنم فالدمية فلعبة العرائس ومن جعل اليوم من الحور شرابا من العنب ومن الجيوب أردافا ومن القرآن منتخبا من الكتاب المقدّس ومن الآيات المحكمات النصوص الإنجيلية القانونية لا المنحولة ومن امسحوا برؤوسكم صلة بالمسيح الممسوح بالزيت لا بالماء ومن الهداية في هدى للمتقين في سورة البقرة علاقة بارتعاش الإنسان أمام يهوه. فلا مناص من أن يبقى الإسلام عبر ترجمة القرآن في دائرة الوثنية والتبعية والمسلمون في دائرة العجز والقصور جاهلين بنصوصهم المقدّسة محتاجين إلى غيرهم لمعرفة دينهم مثلما كان رسولهم محتاجا إلى من سبقه لمعرفة سبيل الروحانيات ومجرّد مقلّد. وكأن ترجمات القرآن تروم تحقيق نفس الهدف الذي سعت إلى تحقيقه جلّ الدراسات الغربية التي تصدّت لدراسة مختلف مظاهر حياة المسلمين الفكرية والروحية والاستدلال من مدخل الترجمة هذه المرة على أن الصورة التي وضعها قديما مسيحيو الشرق بسوريا ونقلوها فيما بعد إلى أوروبا عبر البيزنطيين ومفادها أن الإسلام هو دين السيف والانحلال الأخلاقي والتساهل في الملذات صورة تؤكدها الترجمة العلمية المبنيّة على العلم الحديث لا على جهود المفسّرين المسلمين.

وإن مجرد رصد الدّراسات الغربيّة المتعلّقة بالإسلام النّسقي منها والايديولوجي على حد السواء والتي قام بها الأكاديميون واللاهوتيون وغيرهم ليدل على انخراطها وجلّ ترجمات القرآن في محور إيديولوجي واحد وانطلاقها من نواة مشتركة تتمثّل في عزل الفكر الإسلامي عن المسار الذي سلكه الفكر الكوني بحيث يبدو فكرا شاذا في حاجة إلى التصحيح وإبعاد هذا الفكر عن منابع الريادة والابتكار ومواطن القوة في الحضارة : العقلانية والروحانيات :

التوحيد حتى يبدو مقلّدا عالة على الفكر الإنساني ومتعجرفا خطرا لابد من تصفية الحساب معه. أخرج سنــوك هورقــونج **(Snouck Hurgonje)** الإســلام من مجــال القانــون وأبعــده ج.ه. بوسكـــاي **(G.-H.Bousquet)** عن الأخلاق، وأوجد أندري تور **(Tor André)** بينه وبين العبادات سدا منيعا، واستدلّ برانشفيق **(Brunschvig)** على عداوة صنف من كبار المفكرين المسلمين ابن حزم والغزالي وابن تيمية للمنطق اليوناني، وتمهّلت الكنيسة الكاثوليكية في الحسم في انتمائه إلى الإبراهيمية رغم الأصوات المنادية بضرورة الطلاق بين الخط اليهودي المسيحي والإسلام إذ لا يمكن لأبناء الجارية سارة **(Sarasin)** أن يكونوا أبنـــاء الوعد والعهد حسب الإنجيل. وحسم فيبير في أمر الإسلام فهو دين المحاربين والأصوليين لا مجال فيه للعقلانية. وتجاهله مارسال قوشاي **(M. Gauchet)** إذ لا دين في نظره بعد المسيحية. ونادى البابا بولس يوحنا الثاني في أواخر حبريته صراحة بهوية أوروبا المسيحية وضمنيا بقطع الجسور مع الإسلام. ولم يتردد برنار لويس في جعل المجتمعات المستندة إلى الإسلام نقيضا جدليّا للمجتمع المدني مما يسّر عمل ساموئيل هانتنغتون فأخرج العرب من دائرة الحضارات وجعلهم خلافا للصينيين واليابانيين والغربيين أصحاب حضارة فرعية أو تحتية. وأخيرا استدل ليكسنبارق والأخ برينو بوناي ايمار عبر ترجمة نصوص من القرآن على نفس الفكرة : ضرورة عودة المسلمين إلى القدس وتوجّههم إليها لا إلى مكة وحتمية اعتمادهم على العبرية والآرامية والسريانية إذا راموا فهم قرآنهم الذي لا يمكن أن يكون إلا نسخة عربية للكتاب المقدّس.

لقد وقفنا عند الأفكار أثناء تقييمنا للترجمات ورصدنا الموجود فيها نسقيّا وانتهينا إلى الإقرار بهشاشة السند العلمي الذي تستند إليه وبعدم خضوعها بصفة نظامية لمنهج صارم وفقدانها بالتالي كل مشروعية علمية. فإذا كان مصير هذه الترجمات هو الخروج من دائرة العلم فأين يمكن أن نضعها وما الفائدة منها؟ هل يمكن للايدولوجيا التي تلوح في زي أكاديمي أن تكون المحرّك الخفي والأساسي لها لا سيّما أن جلّ أعمال الغربيين في مختلف الاختصاصات والأزمان تروم تحقيق نفس الهدف وتقدّم نفس الصورة؟ هل للصدفة علاقة بهذه

المسألة أم الأمر يتعلّق بما هو أعمق وأخطر؟ هل هناك تنسيق وتقاسم للأدوار بين من يقدّم الغطاء النظري فكريا ومن يعمل على إعادة ترتيب العالم إجرائيا؟ هل هناك علاقة بين التصنيف والاستهداف؟ ألم يكن بطرس العجائبي (1092-1156) رئيس دير الكلونيين الثامن وأول من وجّه الباحثين إلى ترجمة القرآن منذ بداية القرن الثاني عشر مرتاعا من إنجازات الإسلام العظيمة التي رآها في الأندلس ومصرّا في نفس الوقت على مقاومة هذا العملاق الذي أربك المسيحية من خلال تشويه القرآن عبر الترجمة والإساءة إلى الرسول عبر تقديمه في صورة المقلّد المنتحل؟ هل مسألة ترجمة القرآن مسألة علمية خالصة بريئة من الصراعات الجغراسياسية ولا علاقة لها بالرهانات الاقتصادية؟ ألم يجعل المترجمون المعركة اليوم في قلب القرآن والنبوة والخبراء في الشأن الإسلامي الإشكال في جوهر الثقافة الإسلامية فكريا مثلما جعل الصليبيون المعركة في قلب العالم الإسلامي جغرافيا والأمر متعلّقا بالثأر للمسيح واسترجاع القدس والقضاء على الإسلام بكل الطرق؟ فتلعب الترجمة اليوم نفس الدور الذي لعبته إيديولوجيا الحروب الصّليبيّة وهو تغيير مسار العالم اقتصاديا بجعل أوروبا هي المركز والمستفيد من كل خيرات العالم من خلال اتخاذ الروحانيات والمعرفة، الحروب الصليبية قديما والترجمات ووسائل الإعلام حديثا، أداة لتحقيق مشروع الهيمنة والسيطرة، وتكون بذلك مجرد أداة تستخدم لتدمير الحوار بين المؤمنين والقضاء على مظاهر التنوّع والثراء في التجربة الإنسانية.